بالاستحالة ، وختم إشاراته بتلك النصيحة الذهبية الغالية التي يجب أن يضعها كل باحث وكل مفكر دائماً نصب عينيه . يقول : « إياك أن يكون تكيُّسك وتبرُّؤك عن العامة هو أن تنبرى منكراً لكل شيء فذلك طيش وعجز ، وليس الخرق فى تكذيبك ما لم تستبن لك بعدُ جليّتُه دون الخرق فى تصديقك ما لم تقم بين يديك بيّنتُه . بل عليك الاعتصام بحبل التوقف ، وإن أزعجك استنكار ما يوعاه سمعك ما دامت استحالته لم تبرهن لك . والصواب لك أن تُسرّح أمثال ذلك إلى بقعة الإمكان ، ما لم يذدك عنها قائم البرهان ، واعلم أن فى الطبيعة عجائب ، وللقوى العالية الفعالة والقوى السافلة المنفعلة اجتماعات على غرائب[1] »

درس ابن سينا نظرية النبوة فى البحث الأخير من الإشارات فجاءت درة العقد وأكليل الكتاب ، وأفاض عليها من فصيح بيانه وقوة برهانه ما منحها سلطاناً فوق سلطانها وقوة إلى جانب قوتها ، ويغلب على ظننا أن كل فلاسفة الاسلام أخذوا بها . ومما يؤسف له أنه لم يصلنا شيء عن ابن باجة وابن طفيل يوضح موقفهما إزاءها ، إلا أن نزعتهما التصوفية ورغبتهما الأكيدة فى التوفيق بين الفلسفة والدين تدفعنا إلى القول بأنهما كانا يسلمان بها ويدعوان إليها ، أما ابن رشد فقد عرض لها فى تهافت التهافت مفنداً لاعتراضات الغزالى ومدافعاً عن الفلاسفة القدامى والمحدثين ، وهو يرى أن هذه النظرية وإن تكن من صنع فلاسفة الاسلام وحدهم مقبولة فى جملتها ، ولا وجه للغزالى فى الاعتراض عليها[2] ، وما دمنا نسلم أن الكمال الروحى لا يتم إلا باتصال العبد بربه فلا غرابة فى أن تفسر النبوة بضرب من هذا الاتصال . غير أن هذه التفسيرات العلمية يجب أن تبقى وقفاً على الفلاسفة والعلماء ، فأن عامة الناس لا يدركون كنهها ولا يستطيعون الوقوف على حقيقتها[3] ، وجدير بنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم ، ونقدم لكل طائفة ما يناسبها من غذاء

(يتبع) ابراهيم بيومى مدكور

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٢) ابن رشد ، تهافت التهافت ، ١٢٦ وتوابعها

(٣) ابن رشد ، مناهج الأدلة ، ٧٣

الشفاء

للأستاذ على الطنطاوى

... كان مصاباً بالسل ، ولكنه سل غريب قاتل ، لم يكن فى الرئة ولا فى الأمعاء ، بل كان فى النفس ، فى الفكر ، فكان يعطل شعوره وتفكيره ، ويخنق حياته ، ويهد كيانه ... كان مصاباً « بداء الحب »

خمدت جذوة قريحته ، وتعطلت ملكاته كلها ، وضاع ذكاؤه وبادت فطنته ، وضاق كل شيء فى نظره ، فأصبح يراه مقتضباً مختصراً : فالمسرات كلها اختصرت فى لقاء من يحب ، والآلام فى فراقه ، والواجبات كلها فى إرضائه ، والمحرمات كلها فى إغضابه ، واختصر كتاب حياته ، وطمس اسمه وعنوانه ، فكان حاشية صغيرة على هامش حياة التى يحبها ، واختصرت الدنيا الطويلة العريضة المليئة بالفضائل والأمجاد ، الفياضة بالجمال والحقيقة والخير ، فكانت كلها هذه المرأة ..

وأتهمَ عن الطعام واجتواه ، وأصبح خالفاً لا يشتهيه ولا يميل إليه ؛ وإذا اضطر أكلَ أكل من قرّتْ نفسه واكتفى بلقيمات ما يقمن صلبه ، كأن هذا المرض لا يرضيه ما يفسد من النفس ، حتى يحطم الجسم ؛ وأصابه الأرق ، فأمسى يبيت ليله سهران مسهداً ، وإذا رنق النوم فى عينيه ، وغلبته حاجة جسمه خفق خفقة ، ثم أفاق فزعاً ، يفكر فى هذا الانسان ، يخاف أن يطير مع الأنفاس ، أو يسيل مع الدمع ، أو يغرق فى بحر عينيه ! ..

فهزل جسمه وخارت قواه ، وتراخت مفاصله ، وشحب وجهه ، وآض ساهما رازماً ، ضميفاً مُخَبْخَباً ، ولم يعد يعيش إلا على المجاز ، يعيش بذكرى أيامه الماضية قبل أن يصيبه هذا السل ، أيام كان ذا جسم قوى ، وفكر ثاقب ، وقلب شاعر .. ولم يعد ينتفع بنفسه ، أو ينتفع بها الناس بشيء ، لأنه أصبح لا لنفسه ولا للناس ولا للحياة ، ولكن لانسان واحد يحبه ..

وهكذا الحب أبداً : مرض فى الجسم ، وضيق فى الفكر ، وفرار من حومة الحياة !

* * *

وكان أمس ، وكان يوماً هجهاجاً من أيام الخريف فى بغداد ، هبت فيه الرياح خرقاء هوجاء معصفة ، تذعذع[1] الأشجار ، وتثير الأوراق ، وتكسر الأغصان ، وتمتد إلى كل شىء فى الطبيعة ، فتعبث فيه وتعبث به ، وتدفعه من ههنا ، وههنا ... معتكرة تسفى التراب . وتحمل هذا الغبار الناعم الدقيق الذى يملأ الجو ويخالط كل ذرة من ذرات الهواء ، وينتشر فى السماء كمثل السحاب ، يمنع الشمس ، ويحجب المرئيات ، ولا يمنع منه شىء ، فهو يدخل الغرف مهما أحكمت إغلاق الباب وضبطت النوافذ ، وينفذ من خلال الثياب مهما كانت حصيفة محكمة ، ويحش[2] فى العيون والمناخر والآذان ، وفى أصول الشعر ، ويمر إلى أجواف الصناديق ، وبطون الخزائن ، وقلوب الساعات ... بل إنه لدقته وخفته وسرعته ليكاد يدخل فى نفسه ...

وكان على صاحبنا أن يغدو إلى عمله فى بغداد ، وكان ينزل ضاحية من ضواحيها ، فتردد ثم لم يجد من الأمر بداً ، فتحزم وتدثر ، وتعطف بمعطفه الثخين ، والتحف فوقه بالمطر (المشمع) يتقى به المطر ، ولف شملة على عنقه ، ولبس قفازيه ، وأخذ عصاه فتوكأ عليها ؛ وسار الهوينى ، لا يطيق حراكا ، لكثرة مايحمل من ثياب ، ولطول الطريق ، وشدة الرياح ، وما به من الضعف والاعياء

* * *

وكان وحده فى طريق (الصُّلَيخ) ، لم يجد سيارة يركبها ، ولا قوماً يصحبهم ، فنزل ماشياً ، وكان الطريق طويلاً على طرفيه النخيل ، تعبث به الرياح فتميل بجذوعه وتحرك أغصانه . فتفرقها ثم تجمعها ، فتبدو كأنما هى مراوح ضخمة ، تحركها يد لا ترى ، فتُروّح بها على وجه الدنيا ، وكانت تظهر أوائلها ، وتغيب أواخرها فى هذا السحاب الترابى الذى يغطى على كل شىء ، ويصل الأرض بالسماء ، فترى الطريق كأنه صاعد إليها ، أو تراها كأنها هابطة إليه ؛ وكانت الرياح زعزعاً شديدة ، تميل بالأشجار وتعصف بالغصون ، ولم يكن ثابتاً وسط الرياح إلا صاحبنا بعصاه وضعفه وأحماله ... ولحظ ذلك من نفسه ، وأعجبه أن يلحظه ويفكر فيه ، وعراه شىء من الاعتداد بالنفس ، وازداد حتى ملأه الشعور بقوته ، فجعل ينظر فى عطفيه زهواً وتيهاً ، وجعل يتأمل دخيلته ، ويفكر فى نفسه ؛ من هو ؟ وما هذه الحياة التى يحياها ؟ ...

واشتدت الرياح وعزفت ، ثم صفرت صفيراً ، فلم يبال بها ولم يحفلها ، لأن زوبعة أخرى أشد هولاً قد هبت فى نفسه ... تنطح هذا الحب وتريد أن تنسفه . . فوقف يفكر : لماذا يضيّق حياته بيده ؟ لماذا يعطل فكره وملكاته ؟ أكل ذلك لأنه وجد إنساناً جميلاً ظن أنه يحبه ؟

لتكن جميلة أو قبيحة ، ما شأنه هو بها ؟ ومن قال إنه لا يعيش إلا بها ؟ ماذا كان يصنع قبل أن يعرفها ؟ ألم يكن يعيش ؟ ألم تكن حياته أجمل وأحفل بالعظائم ، وأملأ بالفضائل ؟ هل كان هذا الحب إلا مرضاً عضالاً هد جسمه ومحا مواهبه ، وفل عزيمته ، وأقام بينه وبين الحياة سداً من لحم ودم ؟

يا للسخف ! أيحكم على نفسه بالألم الدائم ، والقلق المستمر ليحظى ذلك الانسان بالسرور والاطمئنان ؟

أيوجب على نفسه الشحوب لأنها موردة الوجنتين ؟ أيختار المرض والهزال لمجرد أنها صحيحة بضة ؟ ...

يا للخجل ! ألا يرى الدنيا إلا فى عينى هذا الانسان ؟ أيقنع من السعادة والمجد والعلم والبطولة والدفء والنور والحياة بابتسامة واحدة ؟

وبدا له الحب كأسخف شىء يكون . . . . . .

* * *

وكانت الدنيا قد استطير لبها ، وجن جنونها ، وهطلت الأمطار سريعة قوية ، تضرب وجهه ... فأحس بالقوة والنشاط ، وجعل ينشق ملء رئتيه ، وتبرق عيناه بريق العزم ، ثم ألقى عصاه وشملته ، ونزع عنه هذه الأحمال من الثياب ... وانتفض وضرب الفضاء بقبضته ، وصاح صيحة الفرح : قد شفيت !

ثم انطلق نحو الدنيا الواسعة . لم تعد محرمة عليه ، لأنه لم يعد يحب !

(بغداد) على الطنطاوى

(١) أى تميل (٢) قال فى القاموس : خششت فى المكان دخلت !